العلاقة بين النص والمفسر بين التوسع والتضييق

د. عبد الله الجيوسي *

تاريخ وصول البحث: ٢٠٠٨/١٠/٦م تاريخ قبول البحث: ٢٠٠٩/٦/١م

ملخص

تهدف هذه الورقة إلى تتبع طبيعة العلاقة بين المفسر والنص من خلال طروحات المدارس الحديثة التي تنادي بالقراءة المعاصرة للقرآن الكريم، وتحاول الكشف عن أبعاد هذه المسألة وبيان تداعيات هذه العلاقة وحدودها من خلال عرض مخاطر التوسع في دائرة هذه العلاقة من جهة ومخاطر التضييق.

وتحرص الدراسة على الإجابة عن مجموعة من التساؤلات، منها: ما حدود العلاقة بين النص والمتلقي؟

وتحاول الدراسة في مبحثها الأخير أن تقدم أبرز الضوابط التي تحكم طبيعة العلاقة بين المفسر والنص.

Abstract

This study aims to follow the relationship between the interpreter and the Quranic text, furthermore to determined identification and function of the interpreter and the nature of the relationship with the Holy Quran).

The main issue of this study based on answering of the following question: What is the mechanism governing the relationship between the interpreter and the text?

A common and important aspect of this study can be easily summarized by the following:

1. proper understanding of the text does not only come interpretation .
2. could be one interpretation of the text in several forms, each with text and multi-faceted, and can not get prima facie understanding of the text .

should be on the right diagnosis and the choice of the text, and the exclusion of meanings and interpretations wrong.

تمهيد:

الحمد لله الذي أنزل القرآن، والصلاة والسلام على من تلقى القرآن هداية ومعجزة، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، وبعد؛

فيتميز النص القرآني بأن المتلقي له يتجدد له التلقي بالطريقتين: المكتوبة (حيث يستقبل النص من خلال قراءته)، والمسموعة (حيث يستقبل النص عن طريق الإنصات له)، وليس ذلك متاحا لكل نص، وقد وُجِدَت نصوص عدة تخاطب المسلم: تارة بطريقة التلقي الأولى، وهو ما يفهم من الأمر (اتل)، حيث ورد في مواضع عدة، وأخرى بطريقة التلقي الثانية (الاستماع والإنصات)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢٠٤: الأعراف]، وقد كان المشركون يتواصون بعدم السماع للقرآن، ذلك لما يعتقدون أن له من الأثر على المتلقي ما لا يخفى، حيث أدركوا ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[٢٦: فصلت]، والإنصات مطلب قرآني جاء صريحا في بعض النصوص، كما في النص المتقدم (وأنصتوا).

وقد كان من وظيفة الرسول ﷺ إسماع من تنزل عليهم القرآن، ولعل استعمال لفظ: ﴿اتْلُ﴾ هو اللفظ الدال على الطريقة التي تصل إلى الفئة التي لا تمتلك وسيلة القراءة، وكم في النصوص ما يشير إلى هذه الوظيفة:﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾[٢٧: المائدة]، ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ

* أستاذ مساعد، قسم أصول الدين، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك.

رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾[١٢٩: البقرة]، ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾[٤٥: العنكبوت]، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾[٢: الجمعة]، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾[٣١: الجاثية].

والملحظ أنّ (يتلو) متعدية بـــ(على) فلفظ (على) يحدد الفئة المستهدفة من النص، والأولى تحدد الطريقة التي يتلقى بها النص، وما بين (اتل) و(اتل عليهم) يصل الخطاب إلى المتلقي، وليس بعد ذلك إلا ما ينتجه النص لهذا المتلقي، ولو عدنا بدورنا إلى ما توحي به هذه المفردة، لأدركنا سر اختصاصها بالنص، ففيهما معنى ما يشير إلى التالي أو القادم، وهي الخطوة التي تتلو التلقي، يعني أنها أولى خطوات التلقي، تليها عمليات عدة، فالمتلقي لا ينتهي تأثره بالنص بعد الانتهاء من تلاوته، ولعل في التعدي بـ (على) ما يشير إلى علو هذا النص وسلطته في المتلقي، وهو ما يقوض ما قامت عليه القراءات الحديثة للنص القرآني داعية إلى توسيع دائرة المتلقي في النص واعتباره العنصر الرئيس في النص ونزع كل سلطة للنص.

في القرآن نصوص تشير إلى ما يدل على وجود صلة واضحة بين النص والمتلقي، أو ما يمكن أن يطلق عليه أثر النص في المتلقي[1]، منه: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾[٢: الأنفال]، وقوله تعالى:﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[١٢٤: التوبة]، وقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾[٥٨: مريم].

ومن المتلقين من تحدث له آثار عكسية؛ قال تعالى:﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[١٢٥: التوبة]، وأيا ما كان الأمر فإن هذه الحركة نتجت عن تلقي النص، وليس هناك من ينكر ما يحدثه النص من أثر في المتلقي.

المقدمة:

منذ نزول القرآن على قلب الرسول الكريم ﷺ والناس ينشدون المعنى من النبع الخالد، وتبعا لغرض كل وارد كان الاختلاف في المناهج التي اتبعت في سبيل الوصول إلى المعنى.

وتأتي هذه الدراسة لتبحث عن طبيعة العلاقة بين متلقي النص وبين المعنى المستنبط منه، وسيكون الحديث عنها ضمن الآتي:

أهمية البحث:

تظهر أهمية البحث من كونه يهدف إلى تتبع طبيعة العلاقة بين المفسر والنص من خلال طروحات المدارس الحديثة التي تنادي بالقراءة المعاصرة للقرآن الكريم، وتحاول الكشف عن أبعاد هذه المسألة وبيان صلتها بما ذكره بعض المستشرقين.

كما تبرز الدراسة تداعيات هذه العلاقة وحدودها من خلال عرض مخاطر التوسع في دائرة هذه العلاقة من جهة ومخاطر التضييق من جهة أخرى.

مشكلة الدراسة:

تحاول الدراسة أن تجيب عن السؤال الآتي: ما طبيعة العلاقة بين النص والمفسر؟

والإجابة عن هذا السؤال تتطلب الإجابة عن مجموعة من الأسئلة التي تتصل بالموضوع، حيث يمكن إجمالها في الآتي:

إلى أي مدى يؤثر النص في المتلقي؟ وما حدود هذا الأثر؟ وهل بين النص والمتلقي حدود لا يمكن تجاوزها؟ بعبارة أخرى: ما الضوابط التي تتحكم في طبيعة العلاقة بين النص ومتلقيه؟ وهل لثقافة المتلقي دور في المعنى الذي يتلقاه من النص، وهل المعنى خارج عن حدود المتلقي وذاتي في النص؟ وهل هو ثابت والمتغير هو المتلقي؟ وما دور المتغيرين الزماني والمكاني في النص.

الدراسات السابقة:

بذل علماء الأصول جهودا لا تنكر في ميدان النص القرآني محاولين الكشف عن الدلالات المستنبطة منه، ووضعوا ضوابط لفهم النصوص وتكلموا عن قواعد لتفسير النص، ولم يكن جهد المفسرين أقل اعتبارا في هذا الشأن. فقد كان البحث في شروط المفسر جزءا من حديثهم؛ بل لقد كان أحد العناوين التي تدخل ضمن مباحث علوم القرآن، وقد كانت لهم إشارات يمكن أن تعد نواة لبحث المسألة التي قامت عليها هذه الدراسة، وهي مسألة العلاقة بين المفسر والنص، لكن لم تكن صريحة، كما بدت في كتابات بعض المعاصرين أمثال المستشرق الألماني شلاير ماخر[٢](١٨٣٤م).

وقد كانت المسألة مدار اهتمام كثير من المفكرين في هذا العصر، وربما كانت شغل الحداثيين على اختلاف مشاربهم، ولم نلمس من أفرد المسألة ببحث مستقل؛ إلا ما كان نشر في حلقات على الشابكة للدكتور أحمد النيفر -وسيأتي بيانه بأذن الله-.

المبحث الأول: طبيعة العلاقة بين النص والمفسر، التداعيات والجذور التاريخية:

بداية أود الإشارة إلى أن متلقِّي النص متفاوتون في الأفهام، والذي يعنينا في هذا أن المفسر (وهو أحد أصناف المتلقين) يرتبط بالنص ارتباطا أوثق من غيره؛ لكن حتى يكون في هذه المكانة لا بد من استكماله لشروط يشترطها العلماء فيه، وهي ما تعرف بـــ(شروط المفسر)، وهي ما ستبينها الدراسة لاحقا.

المطلب الأول: تداعيات البحث في مسألة العلاقة بين النص والمفسر:

مسألة العلاقة بين المفسر والنص ظهر الحديث عنها في العصر الحديث ضمن البحث في نصوص الكتب المقدسة، والذي أولاها نوعا من الأهمية إيديولوجيات عدة، وكانت بين إفراط وتفريط، لكن يعنينا من البحث في هذه المسألة أولا وقبل كل شيء أن نشير إلى: أن النقطة التي انطلقت منها أغلب هذه الأفكار كانت محملة بإسقاطات مغلوطة لا تتوافق مع المنهج العلمي الذي تنادي به الدراسات الحديثة.

هذه المغالطات منشؤها ما نال النصوص المقدسة لدى الحضارة الغربية من التحريف، حيث لم يعد لهذه النصوص صفة القدسية؛ فأسقطوا بشرية النظرة على كل نص، وحاكموا النصوص لهذا المنطلق، دون اعتبار لقائل النص.

ففي الحين الذي نجد فيه (البنيويين)[٣] يعدون المتكلم هو اللغة نفسها، وليس صاحب النص نجد (التفكيكيين)[٤] عملوا على هدم ما يسمى بسلطة النص، ونفوا وجود سلطة يمكن أن يخضع لها القارئ، لا صاحب النص ولا حتى اللغة نفسها.

المطلب الثاني: الجذور التاريخية لبحث مسألة العلاقة بين النص والمفسر.

المتأمل في نشأة كل من البنيوية والتفكيكية يجد أن السلطة التي كانت تفرضها الكنيسة وتمارسها على أبنائها كانت من أبرز أسباب نشوء هذه الأفكار، فمنطلق الغرب قد يكون له ما يبرره، أما أن نجد صدى هذه الأفكار تتسرب إلى من ينتسبون لديننا! ويسقطون على نصوصنا عين القوانين التي حاكموا بها نصوصهم! هذا هو مكمن الخطر!

والوقوف على الظروف التي ظهرت فيها فكرة العلاقة بين النص والقارئ عند الغرب يكشف لنا عن أنها ترجع في غالبها إلى محاولة الكشف عن نية الكاتب وقصده، وهذا الأمر لا يستقيم مع نصوص القرآن والسنة النبوية، فواضح أنه ليس كل فهم للنص مقبول أو صحيح.

وظهرت في إثر ذلك مصطلحات عدة لا تُحمل على حسن النية في أغلب أحوالها، وشعار هذه الدعوات في الغالب دعوة إلى إعادة قراءة القرآن. وسبب الاتهام هذا -كما يشير بعضهم- عائد إلى أن

مجموعة التجارب التي حملت هذا العنوان حملت معها هذه النظرة[٥]، من مثل: "موت المؤلف"، ويقصد به: إعطاء النص انفتاحا أكبر، بمعنى: "إزالة أي تأثير لصاحب النص على فهم القارئ، بحيث يتيح مزيد حرية للقارئ في فهم النص بتقريب كل ما تحتمله لغة النص. وعلى رأي هؤلاء وهم: (البنيويون) يكون المتكلم هو: اللغة نفسها، وليس صاحب النص[٦].

المطلب الثالث: مرتكزات الداعين إلى إعادة النظر في المعنى المستنبط من النص القرآني.

يركز هذا المطلب على بيان مرتكز أصحاب الدعوات المتكررة لإعادة تفسير القرآن من خلال الوقوف على بواعثهم المعلنة لهذه الدعوات.

ربما كانت أبرز قضية رفع المستشرقون لواءها وتبناها الحداثيون بعدهم وكانت تحمل معها مبرر الدعوة إلى إعادة القراءة وإعادة التفسير، هي: أن النص لم يعد يحمل المعاني التي تناسب حاجات العصر المتجددة؛ فآليات الفهم تغيرت، وطبائع المخاطبين تبدلت، واهتمامات البشرية في تغير مستمر، حتى المصطلحات التي تشغل بالهم تختلف كثيرا عن مصطلحات البيئة التي نزل فيها القرآن، وعليه فإن أية قراءة لنصوص القرآن لا بد أن تأخذ في اعتبارها هذه المسألة، التي تسمى بـــ"جدلية المعنى والتاريخ"[٧].

لكن نجد أن مدرسة المنار في التفسير كانت متيقظة لهذه المسألة، وكانت كثيرا ما ترد على هذه الشبهات وتبرز جانب الهداية في النص القرآني وتؤكد على ثراء النص القرآني، وتحرص على إبراز جوانب الجديد فيه[٨].

والحقيقة القرآنية تتكشف جوانبها ودلالاتها مع العصور، ولعل المخزون الثقافي المتراكم للمسلمين يعتبر رصيدا مناسبا ليضاف إلى فهم النص القرآني الثابت، وهذا ما نلمسه في منهج المفسرين، حيث يفيد كل مفسر من معارف مَنْ سبقه، ويضع ما ذكروه على بساط الحوار مستعينا به للوصول إلى المعنى.

وقد تكون المسألة أكثر وضوحا في منهج مدرسة المنار التي انطلقت من مقولة: «القرآن كتاب هداية»[٩] فهو شعار يعتبر "الواقع بمشاغله ومعارفه مسلكاً ضرورياً لإدراك الحقيقة القرآنية. من جهة أخرى يكون القرآن دليلاً مرشداً مصاحباً للعقل في نشاطه المستمرّ لحلّ مشاكل ذلك الواقع يجده إلى جانبه كلّما استهداه في إنجاز تلك المهمّة"[١٠]. وقد ضربت مدرسة المنار أروع النماذج في التجديد في منهجية التفسير، وكان لها من الأثر فيمن جاء بعدها، بحيث أصبحت محاولات التفسير التي ظهرت بعد المدرسة أسيرة للضوابط المنهجية التي نبهت عليها المدرسة.

وتتجدد المهمة على يد الشيخ أمين الخولي[١١]، وتتكرر الدعوة في كتاباته إلى مناداة تشبه في ظاهرها مناداة الغربيين بضرورة التجديد[١٢]، لكنها مناداة سليمة القصد، واضحة الأهداف، وإن كانت قصرت بعض النماذج التي نتجت عن مدرسة الخولي عن تحقيق الأهداف المعلنة[١٣]، فهو يرى أن " فهم ما في النص القرآني من تجديد لا يتأتّى إلاّ بتجاوز المنهج التقليدي للمفسرين الذين يصرّون على صوغ علاقةٍ مع القرآن تحصر خطابه في الذين آمنوا به فقط، والحال أنه جاء لمخاطبة الناس جميعاً مهما اختلف بهم الاعتقاد وافترق بهم الهوى"[١٤].

والخولي لا يرى تناقضا بين القول: "إن دلالات النص القرآني لا تنحصر في زمان أو مكان وبين اعتبار أن النص وثيق الارتباط بالبيئة الأولى التي استقبلت النص القرآني" (الجزيرة العربية)، فهو يرى أن ذلك الارتباط فاتحة لتطبيقات تُحقِّقُ علاقةً بين الواقع والمعنى بحيث تثبت مدى إمكان تطوّر المعنى لاستيعاب أكثر من واقع.

والذين حاكموا مقولات الخولي رأوا أنها تشبه ما نادى به كبار المستشرقين الغرب، وتحديدا شلاير ماخر الذي كان يمثل الهيرمونطيقية[١٥] في مرحلتها

الثانية (التي أضيف إليها البعد الإنساني)، فقد حاول أن يوسع من دائرة القارئ في فهم النص، ولعله استفاد أكثر من دائرة المسكوت عنه في النص(١٦). وهي محاولة جعل النص ينطق بما لم يكن المؤلف قد صرح به؛ وعليه فالنص عنده وسيط ينتقل فكر المؤلف من خلاله إلى القارئ أو المفسر(١٧)، وخطورته -كذلك- في أن المفسر قد يصل إلى معنى أفضل مما قصد إليه صاحب النص.

وبهذا نجد أن أمين الخولي كان ينادي بما يشبه في المنطلق دعوة شلاير ماخر، وقد كتب مادة: تفسير، وكتب كتابا أسماه: مناهج تجديد، وكتب الجزء الرابع من معجم ألفاظ القرآن الكريم، الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة خلال الفترة من ١٩٥٣-١٩٧٠م مستجيبا فيه إلى دعوة بعض أعضاء المجمع.

يتبين لنا مما تقدم: أن أساس الحديث ينحصر في علاقة المفسر بالنص، وقد لمسنا أن المتحدثين عن النص القرآني كانوا يراوحون بين أمرين: التوسع في فهم النص، أو ما يسمى بالنص المفتوح، وهو الذي ينفتح على معان متعددة واحتمالات كثيرة لتأويل النص ويسعى فيه مؤلفه إلى تمثل دور القارئ أثناء كتابته للنص.

وبين ما يسمى بالنص المغلق وهو: الذي ينحصر في معنى واحد لا يحتمل غيره، وأساسه أن المفسر لا دور له في النص سوى إبراز المعنى الموجود، ولو راوح غيره على النص لأخرج المعنى نفسه، وبهذا المنطلق لا توجد حاجة إلى وجود مؤهلات للشخص حتى يكون مفسرا للنص.

مسألة أخرى يمكن أن نرجع إليها إشكالية الفهم للمسألة، هي: أن الداعين إلى هذا خلطوا بين أمرين (المعنى) و(الفهم)، فاعتقادهم بأن المعنى هو عين الفهم أفضى بهم إلى هذا الخلط، "فالفهم مرتبط بذات بشرية متحولة ومتغيرة، لذلك أصبح الفهم بحسب ما يريده القارئ، لا كما يريده المؤلف؛ لأن زمن التأليف غدا زمناً غائباً ينتمي إلى الماضي"(١٨).

هذا الذي يفسر لنا ارتباط الهيرمونطيقية بالفهم، فهي تعنى بالكشف عن الطرق والوسائل التي تمكِّن من فهم النص بخلاف التأويل الذي يكون التركيز فيه على القائل(١٩).

المطلب الرابع: أطروحات الحداثيين في الميزان.

إذا ما عرضنا هذه الأفكار على قواعد المنهج العلمي، وحاكمناها: وجدنا أن هذه المنهجية مجانبة للصواب؛ فالمنهجية الصائبة: هي التي تنطلق من واقع التفريق بين كلام البشر وكلام الخالق؛ وحينما نتحدث عن نصوص الشرع ليس لنا أن نحصر الفهم في معنى واحد. فقد يقرأ النص آخرون ويكون النص محتملا لفهمهم، فالله -سبحانه وتعالى- قد أحاط بكل شيء علما، بخلاف الحال مع نصوص البشر؛ إذ قد يفهم من النص ما لا يقصده صاحبه.

إلا أن الذي نلمسه من واقع الكتابات التي تظهر كل يوم، وتنادي بتجديد الفهم وتجديد منهج النظر في النص ووسائل استلهام المعاني منه، نلمس وجود مدارس عدة أفضت إلى إحداث -أو ربما التظاهر بوجود- مشكلات في فهم النص، وأغلب هذه القضايا المثارة ترجع إلى خلل في فهم القضايا المذكورة.

الإشكالية -كما يجسدها أحد الكتاب المعاصرين- "كانت ولا تزال تتمحور حول كيفية العودة إلى الينابيع الأولى للتلقي منها، وعدم الوقوف عند حدود السواقي تحت شتى الحجج والمعاذير، ذلك أن الواقع الفاشل الذي نعاني منه دليل على فساد وسائلنا وطرائقنا في التعامل مع نصوص الكتاب الخالد"(٢٠).

وفي ضوء هذا الذي تقدم وجدنا دعوات تنادي بإعادة النظر في أدوات الفهم، لكن أية محاولة لا ينبغي أن تغفل التعامل مع التراث في الوقت الذي نستلهم فيه حاجيات الواقع.

الأمر يكمن في امتلاك الأدوات السليمة لفهم النص، والعودة -حقا- إلى المنابع الأصيلة التي نزل فيها النص.

المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في فهم العلاقة بين النص والمفسر.

عملية الفهم للنصوص تخضع لضوابط لا بد من إدراكها، والعلم بها هو الذي يعين في الإجابة عن سر تفاوت المعاني المستنبطة من النصوص لدى المفسرين، وهو الذي يكشف لنا -كذلك- عن سر اختلاف الفقهاء في استنباط الأحكام من النص الواحد، وهذا ما ستبينه الدراسة لاحقا.

أما المعايير التي يمكن أن نرجع إليها هذا التفاوت فنتحدث عنها في المطالب الآتية:

أولاً: اللغة.

ثانياً: الوقوف على بيئة النص أو ما يسمى سياق النص.

ثالثاً: ثقافة المتلقي.

المطلب الأول: اللغة[٢١]

حينما ننظر إلى النص من زاوية المتلقي نجد أن النص يصل إلى المتلقي عن طريق اللغة، فاللغة وسيلة تحمل المعنى للمتلقي، ويصبح لدينا أبعاد ثلاثة: المتكلم، واللغة التي تحمل النص، والمتلقي للنص، وبهذا تصبح اللغة وعاء ينقل المعنى للمتلقي.

والمعنى الذي تنقله اللغة للسامع موضوع مسبقا وفق قواعد معلومة لدى المتلقي، وبهذا يكون دور المتلقي مقتصرا على حمل المعنى، هذا هو الأصل؛ لكن قد ينشأ إشكال من التوسع في دور اللغة في النص، وهنا لا بد من تحديد دورها، أهو الأداء؟ أم التلقي؟

فإن كان الأول: فلا بد من البحث عن مراد المتكلم، وإن كان الثاني: فيمكن للسامع أن يفهم ما يشاء من فهم. وبهذا ينفصل الكلام عن المتكلم ويصبح ملكا للمتكلم. وهذا يفضي إلى العبثية، إذ ليس للمتلقي أن يتجاوز ما يقصده المتكلم، وهذا الأمر- وإن بدا واضحا إلا أنه- صار مجالا للأخذ والرد عند أصحاب القراءات المعاصرة[٢٢].

وينتهي الإشكال حينما نعرف أن الوضع: (جعل اللفظ بإزاء المعنى) سابق، وهو ما يمنع تصرف المتلقي بالنص كما يشاء، فيبقى التخوف من المتلقي كيف يحمل اللفظ ليصل به إلى المعنى؟

والخلاصة: إنَّ الإشكال يزول بفهم القاعدة التي سار عليها علماؤنا في هذا الشأن، وهي: (أن الاستعمال من صفات المتكلم، والحمل من صفات السامع، والوضع قبلهما)[٢٣].

وبهذا ندرك سر التفاوت بين المعاني المستنبطة من النص القرآني، إذ حصيلة المفسر اللغوية تسهم في تباين هذه المعاني في دائرة ما تحمله اللغة من معان.

المطلب الثاني: السياق بين السباق واللحاق[٢٤].

لا يخفى ما للسياق من أثر في إيصال المعنى إلى المتلقي؛ لكن لا بد من إدراك فعل السباق في المتلقي، وأنه هو الذي يحدث ذلك التفاعل الذي يهدف إليه اللحاق من النص، بمعنى: أن أثر اللحاق في النص يرتكز على السباق، ومنه ينشأ تفاعل المتلقي وهي الخطوة التالية، وربما نكون أكثر إدراكا لهذه الحقيقة من خلال النظر في الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور، حيث تحمل للمتلقي رسالة توقظ فيه الحس والوجدان، وتقوم مقام التنبيه والاستعداد لتلقي ما هو آت.

وعبارات النص ليست كلها سواء: فمنها ما هو أصيل للمعنى؛ عليه يعتمد في فهم النص، وهو ما يتمثل في المفردة القرآنية وما تحمله من دلالات.

ومنها ما هو حامل يوجه المعنى إلى جهة من الفهم، ويبعد به عن جهة أخرى من الفهم: كحروف المعاني، وحروف العطف، وغيرها. ومنها ما هو متغير المعنى بتغير موضعه مع أنه واحد في الشكل: كالشأن في الضمائر: (هو) و(هي) و.. وأسماء الإشارة: (هذا) و(ذلك) و.. والأسماء الموصولة: (الذي) و(التي) و..).

إلا أننا لا بد من إدراك ما سطره علماؤنا في هذا الشأن، حيث نجد في كلام الخطابي[٢٥] ما يشير إلى طرف من هذا حينما تحدث عن البلاغة وما تقوم عليه[٢٦]، وفيما قامت عليه نظرية النظم عند شيخ

البلاغة: عبد القاهر الجرجاني دلالات تكشف لنا عن تداعيات الوصول إلى ما وصل إليه، "حيث الصراع يحتدم لينتصر تارة للفظ وأخرى للمعنى، وتأتي نظرية النظم لتحسم الجدل بين الفريقين"[٢٧].

لكن بالرجوع إلى المعنى الذي يستلهمه القارئ من النص نجد أن النص ليس على مرتبة واحدة، فبعض النصوص يتفق على المراد منها كل متلق للنص، ويصل إليه الفهم دون تكلف أو عناء. وبعضها يتفاوت الفهم فيه بين المتلقين.

وهذا الأمر- وإن بدا لأول وهلة أنه عيب في النص، إلا أننا- بالتأمل ندرك أنه مقصود من منزِل النص-سبحانه وتعالى-، تأمل الآية الكريمة التي تكشف لك عن وجود النوعين في النص القرآني، قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ..﴾**[٧: آل عمران]؛ فمنطوق الآية يدل على أن بعض المعاني متفق عليها، وبعضها يتفاوت الناس في الوصول إلى معناه[٢٨].

المطلب الثالث: ثقافة المفسر.

لا شك أن ثقافة المفسر تعين في الوصول إلى معنى النص، وتنوعها ينعكس على المعنى المستنبط من النص، وهذا ما بحثه علماؤنا تحت مبحث شروط المفسر أو ما شابهه[٢٩]، لكن إلى أي مدى يظهر تأثير ثقافة المفسر في النص؟

همّ الوصول إلى المعنى هو الذي يسهم في بناء العلاقة بين أي متلق للنص وبين النص نفسه، وقد تتسع عملية الفهم تارة من جهة المتلقي، ويسهم فيها ثقافة المفسر، وقد تضيق، لكن -لا يخفى- أن هذه العلاقة تتوقف عندما تتجه ثقافة المتلقي إلى غير القواعد المتعارف عليها في فهم النص، بمعنى أن حرية الفهم لهذا النص تكون من هذه الزاوية محصورة في جوانب عدة، يمكن ذكرها في الآتي:

١- قصد صاحب النص.
٢- المنهجية المتبعة في الوصول إلى معنى النص.
٣- اللغة والأسلوب الذي اتبعه المفسر.

المبحث الثالث: أساسيات في فهم النص القرآني.

تكمن مشكلة القراءات المتقدمة في أنها تحاكم النص القرآني كله إلى أحد الحالين المذكورين، ولعلنا لو أردنا أن نعين أصحابها على تقريب المعنى الذي طرحوه، نقول لهم: النص القرآني فيه الذي لا يحتمل إلا معنى واحدا، وهو الذي سماه القرآن (آيات محكمات)، وفيه الذي يحتمل معان عدة، وهو الذي سماه القرآن (وأخر متشابهات)، وبهذا نستطيع القول: إن طرح كل فريق كان قد جانب الصواب من جهة تعميم الحكم على كامل النصوص.

وعليه نستطيع القول بأن المفسر تتسع دائرته في الآيات المتشابهة ما لا نجدها في النص المحكم[٣٠]، وقد أوضحت الآية الكريمة صفة العلاقة وبينت أنها مدار اختلاف وتعدد في الفهم **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ﴾** [٧: آل عمران].

وفي المقابل ينحصر دوره في المحكم بما تسمح به دائرة اللغة والسياق الذي وردت فيه. لكن هل حقا اللغة حلقة مغلقة تحصر الفهم في زاوية واحدة؟

هذا ما نجده صريحا في كلام نصر حامد أبي زيد[٣١] حيث ينحصر الفهم -على حد قوله- "في أقلية مستبدة، هم فقط أهل اللغة"، ولهذا يتبنى القول ببشرية النصوص، وينادي بتأويلها تأويلاً مفتوحاً متنوع القراءات بحسب نوعية القراء وعددهم.

نحواً من هذا الطرح ومن زاوية تاريخية يدرس أركون[٣٢] نصوص الوحي وفق مفهوم (النص المفتوح) -أيضاً-؛ فالدلالات مفتوحة، قابلة للتجدد مع تغير آفاق القراءة، المرتهن بتطور الواقع اللغوي والثقافي -حسب تعبيرهم-.

المطلب الأول: فهم النص بين مقتضى الحال ومقتضى المقال.

ترتبط مسألة الوصول إلى المعنى بالنص تارة وبالمتلقي تارة أخرى، واكتمال المعنى للنص لا بد أن يتحقق من خلال الوقوف على ظروف نزول النص ومعرفة طبيعة من تلقى الخطاب، والغاية من الخطاب، بمعنى إدراك ما أطلق عليه عند البلاغيين مفهوم (مقتضى الحال ومقتضى المقال[٣٣]).

لو تأملنا في النص القرآني نجد أن بعض المعاني يمكن إدراكها حال سماعها، وبعضها نصل إلى معناها بعد الاستعانة بما يوصل إلى المعنى من مثل: الوقوف على بيئة الخطاب، وربما يكون له سبب نزول مباشر، وبعضها قد يدق فهمه على من تلقى النص أولا، في حين تتضح معانيه أكثر بعد زمن النزول.

وهذا الأمر وإن بدا أنه يشبه خطاب الحداثيين، لكن هذه الدراسة يهدف صاحبها إلى مخاطبة الحداثيين بأن بعض ما انطلقوا منه كان صوابا، لكن كانت المشكلة في نتائجهم.

المطلب الثاني: ذاتية التجديد تكمن في النص.

رغم تعدد الدعوات لتجديد الفهم للنص القرآني وتعدد الدوافع التي تحملها؛ إلا أنها تقر بأن النص القرآني: فيه خاصية المرونة التي تضمن له البقاء، ولعلي -في هذا المقام- لا أتجاوز عبارة أحد كبار المصلحين في هذا العصر[٣٤]، حيث وصف هذه الحيوية في معاني النص القرآنية بـــ(شبابية القرآن) وفتوّته فيقول "إن القرآن الكريم قد حافظ على شبابيته وفتوّته حتى كأنه ينـــزل في كل عصر نضِراً فتياً... لأنه خطاب أزلي، يخاطب جميع طبقات البشر، في جميع العصور خطاباً مباشراً، يلزم أن تكون له شبابية دائمة كهذه. فلقد ظهر شاباً -وهو كذلك كما كان- حتى إنه ينظر إلى كل عصر من العصور المختلفة في الأفكار والمتباينة في الطبائع، نظراً كأنه خاص بذلك العصـــر، ووفق مقتضياته ، ملقناً دروسه ملفتـــاً إليها الأنظار"[٣٥].

وفعلا نجد أن القرآن تتجدد له شبابيته في كل عصر وتتطلع الأفهام إلى ما يحمله من المعاني.

لكن هل هذا الذي يتحدث عنه النورسي هو الذي يطلق عليه الحداثيون (النص المفتوح)[٣٦]؟

الأمر يختلف تماماً عما يتحدث به الحداثيون تحت عنوان النص المفتوح؛ لأن النص المفتوح عندهم يفضي إلى القول بأن النص قد صيغ في سياقه المعجمي، وأن كل كلمة من النص تحمل معها تاريخا قد يقصده الكاتب وقد يغيب عنه في حين تبقى الكلمة حاملة له، هذا النوع من الفهم يحمل جانبا من الخطورة يكمن في جانب عقدي، فهل يستقيم أن يغيب شيء من المعاني التي يحملها النص عن منزل القرآن الكريم- حاشاه سبحانه؟!

لكن هذه الأفكار لا تمنعنا من إدراك امتداد جوانب التجديد الذاتية في النص القرآني؛ فالله- سبحانه- حينما أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرا أودع فيه من المعاني ما يكون على أتمه في كل عصر مصطحبا معه المعنى الذي استلهمه الرعيل الأول من النص، لكن تتسع دائرة الفهم باستحضار أدوات جديدة للمفسر وتتسع المدلولات في ذهن القارئ بحيث يتبدى له من المعاني ما غاب عن كثيرين ممن سبق، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه ما يسمى بـــ (الانفتاح الدلالي).

وحتى لا نقع نحن في شبكة الصياد التي رماها المغرضون لا ينبغي أن نرد كل طرح يشبه في مقدماته مقولات الحداثيين، فنقع في الفخ من الطرف الآخر، فقد تبعث حماسة بعضنا إلى رفض ما يسمى بالانفتاح الدلالي معللا بأنه يشبه طرح الحداثيين، فتكون النتائج عكس ما نريد ونقع في تهمة (النص المغلق).

ونجد مثالا واضحا على هذا الأمر في كلام دراز في كتاب النبأ العظيم حينما ضرب مثلا بقوله

تعالى:﴿وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢١٢: البقرة]، حيث ضرب بالآية مثلا تحت أحد خصائص اللفظ القرآني: (البيان والإجمال):

فهذه الكلمة على ما بها من وضوح في المعنى، إلا أنه بها من المرونة ما يبيح لنا أن نذهب في معناها مذاهب متعددة: فإذا قلنا في معناها:

"١- أنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه، ولا سائل يسأله . لماذا يبسط لهؤلاء ويقـــدر على هؤلاء، أصبنا.

٢- وإذا قلنا: أنه يرزق بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاد، أصبنا.

٣- ولو قلنا أنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب، أصبنا.

٤- ولو قلنا: أنه يرزق من يشاء بغير معاتبة ومناقشة على عمله، أصبنا.

٥- كما لو قلنا: أنه يرزق من يشاء رزقاً كثيراً لا يدخل تحت حصر ولا حساب، أصبنا. ويكون في هذا أو ذاك وعد للصالحين. إما بدخول الجنة بغير حساب أو بمضاعفة الأجر أضعافاً مضاعفة كثيرة لا يحصرها العد"[٣٧].

فانظر في المعاني التي احتملتها الجملة تجد أنها محتملة من غير تغيير في النص، فقد استنبط خمسة معان كلها صحيحة يحتملها النص. بل لقد ذكر المفسرون لها ستة معان كلها يحتمله النص[٣٨].

ماذا نعني بالانفتاح الدلالي؟ وما مثاله؟

نعني به: تعدد المعاني في السياق الواحد بحيث تستوعب دلالة اللفظ معاني عدة يحتملها اللفظ القرآني[٣٩]، وله مستويات:

أولا: المستوى الصوتي، بمعنى ما يترتب عليه تغير المعنى تبعا للأداء الصوتي، ولعل هذا يظهر من الجانبين الآتيين:

١- الوقف والابتداء: فقد يتعدد المعنى بحسب الموطن الذي نقف عليه في النص، وموضوع الوقف والابتداء نال حظا من عناية علمائنا، وصنفوا فيه مصنفات[٤٠]، وأمثلته كثيرة، نضرب له مثلا بقوله تعالى: ﴿فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[٢٥: القصص]، فلو وقفنا على قوله: ﴿**استحياء**﴾ وابتدأنا بما بعدها حصلنا على معنى يفيد بأن مشيتها كانت على استحياء، فالمشية تدل على الحياء، ولو وقفنا على قوله: ﴿**تمشي**﴾ وابتدأنا بما بعدها حصلنا على معنى آخر وهو أن قولها لأبيها كان قد دل على حيائها، بمعنى: قالت ما قالت لأبيها على حياء وخجل، وقد نبه إلى قريب منه بعض المفسرين[٤١]، فانظر كيف دل الوقف والابتداء على معان جديدة.

٢- التنغيم[٤٢]: تحدث علماء الصوتيات عن دور التنغيم في العربية، وأشاروا إلى أن له وظائف نحوية، وذلك أن النغم له دوره في التفريق بين أسلوب وآخر من أساليب التركيب والذي يحدده المستوى الصوتي، فالمعروف أن الجملة المستفهم بها تختلف طريقة أدائها عن الجملة المتعجب منها، وكذا الجملة المخبر بها، يشار إلى أن التنغيم هو أكثر ما يستخدم في اللغات "للدلالة على المعاني الإضافية (كالتهكم والتأكيد والدهشة والغضب..)، وهكذا يتلاءم التنغيم ليعبّر لنا عن المقام وتمنح تموجاته النغمية دلالات نفسية وتجسّد حالات عاطفية لا تستطيع اللغة الهجائية التعبير عنها"[٤٣]، ومثال ما يتعدد المعنى فيه تبعا للتنغيم قوله تعالى:﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[٢: المسد].

ففي النص موطنان يختلف المعنى بحسب ما نختاره من المعاني وفق الأداء، (ما) الأولى يمكن اعتبارها استفهامية وحينها يكون الأداء مسهما في هذا المعنى، ويمكن اعتبارها نافية، ويكون الأداء مسهما في المعنى، و(ما) الثانية يمكن أن تكون نافية، ويمكن أن تكون موصوله[٤٤]، هذا مع وجود معان أخرها يستبعدها السياق، فالأداة (ما) تستعمل في اللغة-كذلك- للتعجب، وهي هنا مستبعدة؛ إذ السياق والمعنى يأبيان ذلك.

ثانيا: المستوى الصرفي: وأما على المستوى الصرفي فيتعدد المعنى بتغير بنية الكلمة، كما في تناوب صيغ الكلمة: ما بين فعل وفاعل ومفعول به ومصدر وصفة مشبهة وصيغة مبالغة، وهكذا..، ومثالها، قوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾[١١: الغاشية]، فقد ذ كرَ القرطبيُّ أنّ فيها ستّةَ أوجهٍ: "أولُها: لاغيةٌ: كذبٌ وبهتانٌ وكفرٌ، وهذا مذهبُ ابنِ عبّاسٍ، وثانيها: باطلٌ وإثمٌ، وهذا مذهبُ قتادةَ، وثالثُها: الشتمُ، وهذا قاله مجاهدٌ، ورابعُها: المعصيةُ، وهو للحسنِ، وخامسُها: لا يُسمَع فيها حالفٌ يحلفُ كذبا؛ قاله الفرّاء، وسادسُها: لا يُسمَع في كلامِهِم كلمةٌ بلغوٍ"[٤٥]؛ وهو للفرّاء –أيضا-، وكل هذه المعاني مكتسبة من الدلالة الصرفية للفظة (لاغية).

ثالثا: على المستوى التركيبي: فنجد تركيب اللفظ يعطي جمعا من المعاني يحتملها اللفظ القرآني، وقد يتشكل هذا التنوع من التعدية بأحد حروف المعاني للمفردة القرآنية، فمثلا نجد الكلمة تتعدى تارة بـــ(عن) وتارة بـــ(الباء) وتارة بـــ(على)، ويكفي أن نضرب لذلك مثلا بقوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [١٢٧: النساء]، فالثلاثي (رغب) يتعدى تارة بالباء، وتارة بعن، لكن المعنى على الضد، فالرغبة في الشيء تعني محبته، والرغبة عنه تعني كرهه، وقد اجتمعا في قوله تعالى:﴿وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾[١٢٠: التوبة][٤٦]، لكن في المثال الأول منهما نجد اللفظ بلا تعدية، ليحتمل كلا الأمرين، فكأن اللفظ يشير إلى أن الأولياء في هذا صنفان صنف يرغب بتزويجهن تخلصا من أعبائهن، وصنف يرغب في إبقائهن طمعا في مالهن، فانظر كيف كان اللفظ الواحد محتملا للصنفين[٤٧]. أما جوانب الثراء في اللفظ القرآني فيصعب حصرها، لكن يكفي أن ندلل من خلاله على جوانب التجديد التي يحملها النص -كما أشرنا سابقا-.

رابعا: المستوى المعجمي، فهناك ما يعرف بالمشترك اللفظي، فقد يختار اللفظ القرآني لفظة تستخدم لمعنيين أو لثلاثة أو أكثر، وكلها محتملة في النص، من ذلك: الإلّ، في قوله تعالى:﴿لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾[٨: التوبة]، فالإل: اسم يشتملُ على معانٍ عدة، ذكر الماوردي فيه سبعة معان، نجمل منها: ١-العهدُ والعقد، ٢-الحلفُ والقرابةُ، ٣-بمعنى الله ﷻ، فإذا كانتْ الكلمةُ تشملُ هذه المعانيَ الثلاثةَ، ولم يكن اللهُ خصّ مَن ذلك معنى دونَ معنى- فالصوابُ أنْ يعمَّ ذلك كما عمّ بها -جلّ ثناؤه- معانيَها الثلاثةَ فيقال: لا يرقبونَ في مؤمنٍ: اللهَ ولا قرابةً ولا عهدا ولا ميثاقاً"[٤٨].

فقد لمسنا من خلال ما تقدم أن ثمة ما يدعو إلى القول باتساع المعاني، ومن قبل اطلعنا على من يضيق المعانى ويحصرها في جهة، لكن أيا من الرأيين لا يستقيم القول به دون ضوابط. وهكذا وجدنا مصطلحات عدة تهتم في علاقة المفسر بالنص، ما بين البنيوية والتفكيكية، والهيرمونطيقا التي (تُعنى بفن الفهم: أي الكشف عن الطرق والوسائل التي تمكن من فهم النص) والسيمونطيقا، والنص المفتوح والنص المغلق.

المطلب الثالث: ضوابط في فهم النص القرآني:

ربما يكون أغرى الذين توسعوا في فهم النص القرآني استعمال لفظ التأويل في كلام المفسرين، ظنا أن اللفظ يشاكل ما هو معروف بمصطلح (الهيرمونطيقا)، لكن ثمة فرق بين المصطلحين، فمحور البحث في الهيرمونطيقا يكمن في عملية الفهم، أما في التأويل فيكمن البحث في دلالة الألفاظ. بمعنى في الهيرمونطيقا يكون التركيز على القارئ أما في التأويل فالتركيز يكون على القائل.

المشكلة تكمن في كيفية التعامل مع مناهج التلقي والنظر والفهم، ذلك أن القيم الخالدة تبدو في ضوء أدواتنا عاجزة عن معاودة الإنتاج، الأمر الذي يدين وسائلنا ويتهمها بالقصور أو الخلل..

الضوابط التي تنبغي مراعاتها لفهم النص كثيرة، لكن سنقتصر حديثنا في هذا الموضع على ما له صلة وثيقة بالنص والمفسر معا، بمعنى ما تنشأ عنه علاقة تكون مظنة للتوسع والتضييق في الفهم

١- مراعاة القواعد النحوية والتزامها، واستبعاد أي فهم لا تعين عليه الأعراف اللغوية؛ لأنه مظنة لتغير الفهم، لكن ليس كل ما صح لغة صح تفسيراً، ولا كل ما صح إعراباً صح تفسيرا، وقد نبه ابن هشام بشيء من التفصيل على هذه المسألة مشيرا إلى أنه قد تأتي أوجه من الإعراب للألفاظ تسوغ لغة ونحواً ولكن لا تسوغ تفسيراً؛ ذكرها تحت عنوان الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها وهي عشرة[٤٩].

ومن ذلك عود الضمائر المعطوفة، فقد نجد من يرجع بعضها إلى المذكور الأول في السياق وبعضها إلى المذكور الآخر دون قرينة صريحة، وهذا يفضي إلى تغير في المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿**لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾[٩: الفتح]، فقد أعاد بعضهم الضمير في قوله: وتسبحوه "إلى الله خلافا لبقية المعطوفات التي أعادها إلى الرسول ﷺ".

ولعل من ذلك: القول في (مهما) من قوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾[١٣٢: الأعراف]، فقد قال الزمخشري: (وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرفها من لا يد له في علم العربية؛ فيضعها في غير موضعها ويحسب (مهما) بمعنى: متى ما، ويقول: مهما جئتني أعطيتك، وهذا من وضعه وليس من كلام واضع العربية في شيء، ثم يذهب فيفسرها بمعنى الوقت؛ فيلحد في آيات الله تعالى وهو لا يشعر"[٥٠].

٢- حمل اللفظ القرآني على عمومه واتساعه، والبعد عن حصر المعنى في جهة من المعاني التي يحتملها النص، والتنبه إلى أن للمفسر أفقا وللنص أفقا ولا ينبغي أن يطغى أفق المفسر على أفق النص؛ فأكثر ما يحصل الانحراف في الفهم نتيجة لحصره في أفق المفسر[٥١]، ويتصل بهذا دخول المفسر ساحة التفسير مصطحبا معه مقرراته ومعتقداته، فهذا أكثر ما يعزى إليه منشأ الخطأ في الفهم أو الانحراف عن المعنى الذي حقه أن يستنبط من النص، والقراءات الحديثة تجيد هذا النوع من الفهم.

ومثال ذلك المشترك من اللفظ، فالأصل أن يحمل اللفظ على المعاني التي يحتملها اللفظ، وفي ذلك يقول ابن عاشور: "معاني المشترك كلها من قبيل الحقيقة وإلا لانتقضت حقيقة المشترك فارتفع الموضوع من أصله. وإنما سها أصحاب هذا الرأي (القائلون بحصر المعنى في جهة ما لم توجد له قرينة) عن الفرق بين قرينة إطلاق اللفظ على معناه المجازي وقرينة إطلاق المشترك على عد ة من معانيه، فإن قرينة المجاز مانعة من إرادة المعنى الحقيقي وقرينة المشترك معينة للمعاني المرادة كلا أو بعضا"[٥٢]. ولعل المثال الآتي يوضحه، قوله تعالى: ﴿**فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ**﴾[٢٣: المرسلات]، لفظ قدر: يأتي على معان عدة، منها: بمعنى:(ضيق) و(من القدرة والقوة) و(من التقدير)، وغير ذلك[٥٣]، فلو حمل مفسر المعنى على أحد هذه المعاني ومنع بقيتها كان حصرا له.

٣- الانطلاق من قدسية النص القرآني وخصوصيته؛ فأكثر ما ينشأ الانحراف في الفهم من حمل المفسر للمعنى دون نظر إلى قائله، ولعل فيما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية ما يتصل بهذا الضابط، حيث يقول: تفسير النص بمجرد ما تسوغه اللغة دون نظر إلى قائله (قَوْمٌ فَسَّرُوا الْقُرْآنَ بِمُجَرَّدِ مَا يُسَوِّغُ أَنْ يُرِيدَهُ بِكَلَامِهِ مَنْ كَانَ مِنْ النَّاطِقِينَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إلَى الْمُتَكَلِّمِ بِالْقُرْآنِ وَالْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ وَالْمُخَاطَبِ بِهِ، وذلك كاللفظ الذي يُطلق في اللغة على معنيين أو أكثر. والمراد منه واحد بعينه، فيأتي المفسِّر فيحمله على معنى آخر من معانيه غير المعنى المراد، "وذلك كلفظ "أُمَّة" فإنه يُطلق على معان، منها: الجماعة، والطريقة المسلوكة في الدين، والرجل الجامع لصفات الخير، فحمله على غير معنى الطريقة المسلوكة في الدين في قوله تعالى في الآية [٢٢] من سورة الزخرف: ﴿**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ**﴾[٢٢: الزخرف]، غير

صحيح وإن احتمله اللفظ لغة"(٥٤). قال الطبري عند تفسير الآية: "الأمة: الدين"(٥٥).

٤- معرفة حدود إعمال العقل في النصوص القرآنية، فالأصل أن لا تعارض بين ما أتت به النصوص وبين ما يستنبطه العقل، وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الأصل كتابه المشهور: (درء تعارض العقل والنقل)(٥٦)، والأصل أن العقل القطعي والنقل القطعي لا يتعارضان، ولا يتصور ثبوت التعارض(٥٧)، لكن لا بد من إدراك حدود العقل في إعمال النص، فإعطاؤه الحرية الزائدة هو الذي يفضي إلى إخراج النص من حدوده، ولو تأملنا في نتاج الحداثيين لظهر لنا جليا أن منشأ ذلك كان من التوسع في إعمال العقل في نصوص القرآن دون مراعاة لضوابط التعامل معه

٥- مراعاة معهود القرآن وعرفه. سواء المتصل باللفظ أم المتصل بالمعنى أم بالسياق؛ فكثيرا ما يعين على حل إشكال ما في المعنى عندما يجمع إلى الآية نظائرها، وقد يكون من ذلك، لفظ (في سبيل الله)، كما في **قوله:﴿الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾**[البقرة: ٢٧٣] أي حصروا أنفسهم ووقفوا على الجهاد في سبيل الله، لأن سبيل الله مختص بالجهاد في عرف القرآن(٥٨).

أخيرا نقول: إن القرآن أخبر هذه الأمة بأن كتابها عصي على التحريف أو التبديل، فليس الخوف من هذا الباب، وإنما من مسالك الفهم التي يسلكها قارئ النص، وحتى تبعد النص القرآني من ساحة استهدافه لا بد من التيقظ لأية محاولة تجعل من تغيير معنى النص ومدلوله طريقا، ولا بد من التأكيد على ضوابط التعامل مع النص القرآني.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

خاتمة البحث ونتائجه:

١- تكمن خطورة النظريات الحديثة التي تتعامل مع النص القرآني بوصفها تستهدف المعنى وتحاول النيل منه بوسائل قد تدق وتخفى تارة، وقد تكون واضحة تارة أخرى، وهذا الأمر يشبه إلى حد بعيد ما ذهبت إليه الباطنية من حيث سلب اللغة العربية المعاني التي تدل عليها، وصرفها إلى معاني لا تمت إلى اللغة بصلة حقيقية.

٢- إن محاولات تشويه النص القرآني واستهدافه قديمة حديثة، تختلف في الوسائل وقد تلتقي في النتائج، والعبرة بالنتائج؛ فما كان تحت مصطلح التأويل قديما تجدد حديثا تحت مسميات أخرى.

٣- كان لاستهداف النص القرآني من الفوائد التي تعود على الأمة، أنها حركت عقول علماء الأمة واستنهضت هممهم ليتصدوا لهذا الاستهداف فأنتج لنا من الدقائق والأسرار التي يحملها النص القرآني ما لا نكتشفه لو لم تكن هذه الدراسات.

٤- لمسنا ما يحمله النص القرآني من ذاتية التجديد التي تكمن فيه بحيث تشهد لهذه المعاني كل العقول السليمة.

٥- لوحظ ما تحمله اللغة من مقومات تجعلها مؤهلة بدقة لحمل النص القرآني على مر العصور، فاللغة وعاء يستوعب النص القرآني والمعاني المتجددة التي تمكن الأمة من مواجهة كل جديد يستهدف هذا الدين.

٦- أغلب الجهود التي بذلها المغرضون تتركز على نصوص هذا الدين، ليقينهم بأن زعزعة هذه النصوص هي الوسيلة التي تمكنهم من خدمة أغراضهم بأسرع السبل.

الهوامش:

---

(١) للمزيد انظر: عبد الله محمد الجيوسي، **التعبير القرآني والدلالة النفسية**، دمشق، دار الغوثاني، ٢٠٠٥م، ط١، ص١٠٧-١٣٧.

(٢) مستشرق ألماني حرر مادة " تفسير في "**موسوعة الديانات والأخلاق**"، حيث كتب عن المادة من منظور وضعي، ولا فرق عنده بين تفسير القرآن، والأناجيل والتوراة، انظر عامر عبد زيد، التأويل والممارسة عند شلاير ماخر على الموقع الآتي:

http://www.kwtanweer.com/articles/categoryarticles.php?categoryID=12&pageNo=5

(٣) البنيوية: لفظة اشتقت من البنية تعنى بتحليل المسألة إلى عناصرها المؤلفة منها، دون نظر إلى أية عوامل خارجية عنها وهي عبارة عن منهج فكري وأداة للتحليل، تقوم على فكرة الكلية أو المجموع المنتظم. اهتمت بجميع نواحي المعرفة الإنسانية، وإن كانت قد اشتهرت في مجال علم اللغة والنقد الأدبي، انظر: جبور عبد النور، **المعجم الأدبي**، بيروت، دار العلم لملايين، ط٢، ١٩٨٤م.

(٤) التفكيكية: مشتقة من فكك، وتعني تفكيك الارتباطات المفترضة بين اللغة وكل ما يقع خارجها، والتفكيكية (deconstruction) إحدى مدارس الفلسفة والنقد الأدبي التي تنحو إلى القول باستحالة الوصول إلى فهم متكامل أو على الأقل متماسك للنص أيا كان، فعملية القراءة والتفسير هي عملية اصطناعية محضة يقوم بها القارئ الذي يقوم بالتفسير. من ثمَّ يستحيل وجود نص رسالة واحدة متماسكة ومتجانسة. انظر: محمد عناني، **المصطلحات الأدبية الحديثة: دراسة ومعجم إنجليزي/ عربي**، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، الطبعة الثانية، سنة١٩٩٧م، ص١٣١، وانظر: الموقع الآتي:
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D9%81%D9%83%D9%8A%D9%83%D9%8A%D8%A9".

(٥) عبدالرحمن حللي، **بنية القرآن الكريم كمدخل لإعادة القرآن**، مقال منشور على موقع الملتقى الفكري للإبداع.

(٦) انظر أحمد إدريس الطعان، **القرآن الكريم والتأويلية العلمانية (النص واللعب الحر)**، ورقة قدمت لمؤتمر التطورات الحديثة في الدراسات القرآنية، بيروت، ص١١-١٢.

(٧) للمزيد انظر حبيب مونسي، **القــراءة والحداثة (مقاربة الكائن والممكن في القراءة العربية)** من منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000، ص١٧ وص٥٦ وما بعدها.

(٨) فعلى سبيل المثال لا الحصر نجده قد صرح بهذا في مواطن منها عند تفسيره للآية ١٨٠ من سورة آل عمران، فقد قال: "وَالْحِكْمَةُ فِي تَرْكِ النَّصِّ عَلَى أَنَّ الْبُخْلَ الْمَذْمُومَ هُنَا هُوَ الْبُخْلُ بِمَا يَجِبُ بَذْلُهُ مِمَّا يَتَفَضَّلُ اللهُ بِهِ عَلَى الْمُكَلَّفِ، هِيَ أَنَّ فِي الْعُمُومِ مِنَ التَّأْثِيرِ فِي النَّفْسِ مَا لَيْسَ لِلتَّخْصِيصِ... فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ التَّحْدِيدَ كَانَ أَوْضَحَ، وَأَنْفَى لِلْإِيهَامِ. قُلْنَا: إِنَّ الْقُرْآنَ كِتَابُ هِدَايَةٍ، وَوَعْظٍ يُخَاطِبُ الْأَرْوَاحَ لِيَجْذِبَهَا إِلَى الْخَيْرِ بِالْعِبَارَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ تَأْثِيرًا. انظر: محمد رشيد رضا (ت ١٩٣٥م)، **تفسير القرآن الحكيم**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ج٤، ص٢١٢. وانظر: ج٥، ص٣٤٢، وج٦، ص٣٠٠، وقد تولى التفسير بيان بلاغة القرآن وكونه يرد على شبهات المغرضين، ومن ذلك ما نجده عند تفسيره للآية ٢٤ من سورة البقرة، ج١، ص١٢٨. ومن العبارات الصريحة في أنه يرد على الشبهات من أجل انه كتاب هداية. قوله: إِنَّا كَشَفْنَا أَمْثَالَ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ فِي تَفْسِيرِ كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ، وَفِي غَيْرِ التَّفْسِيرِ مِنَ الْمَنَارِ، وَبَيَّنَّا مِرَارًا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ تَرَكُوا هِدَايَةَ الْقُرْآنِ فِي حُكُومَاتِهِمْ وَمَصَالِحِهِمُ الْعَامَّةِ، ج٩، ص١٨.

(٩) انظر محمد رشيد رضا، **تفسير القرآن الحكيم**، مجلة المنار، ج٣٠، ص٥٢، وقد كرر ذلك مئات المرات في المجلة وفي تفسير المنار.

(١٠) أحميدة النيفر، **في علاقة المفسِّر بالنصّ (وجوه تجديد مناهج التفسير القرآني)**، مقال منشور على الموقع الآتي:
http://science-islam.net/article.php3?id_article=813&lang=ar.

(١١) أديب مصري معروف، شخصية جمعت بين الاتصال بالحضارة الغربية ومناهجها في الدراسة وبين الدراسة العربية والدينية، فقد تخرّج من مدرسة القضاء الشرعي، وارتحل إلى أوربا فأتقن الإيطالية والألمانية، وقرأ كثيرا من آدابهما، وألمّ بالحركة الاستشراقية ومناهج أصحابها في الدراسة، كان شديد الإعجاب بمحمد عبده، فتأثر به وسلك سبيله في الدعوة إلى تجديد حياة التفسير القرآني، من مؤلّفاته: مدخل لدرس التفسير، دراسات لبعض موضوعات القرآن، البلاغة العربيّة، مشكلات حياتنا اللغويّة، (ت ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م)، تقلّد عدة مناصب في الحكومة المصريّة، وشارك في عدّة مؤتمرات. انظر: الزركلي، خير الدين: **الأعلام (قاموس تراجم)**، بيروت، دار العلم للملايين، ط٦، ١٩٨٦م، ج٢،

ص١٦. وانظر: خليل، السيد أحمد: **دراسات في القرآن**، القاهرة، دار النهضة المصرية، د.ط، ١٩٦٩م، ص١٤٧.

(١٢) انظر مثلا أمين الخولي: **البلاغة وعلم النفس**، القاهرة، مجلة كلية الآداب، مج٤، ج٢، د.ت، ص١٣٥-١٦٧. وانظر مناهج تجديد في التفسير واللغة والبلاغة. وانظر ما كتبه حول مادة "تفسير"، **دائرة المعارف الإسلامية**، إعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد ورفاقه، القاهرة، دار الشعب، ط٢، ١٩٦٩م.

(١٣) انظر: محمد إبراهيم الشريف: اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، القاهرة، دار التراث، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص٥٣٢.

(١٤) أحميدة النيفر، **في علاقة المفسِّر بالنصّ (وجوه تجديد مناهج التفسير القرآني)**.

(١٥) الهيرمونطيقا: أحدى المصطلحات التي ظهرت في العصر الحديث، وتحديدا في دوائر الدراسات اللاهوتية ليشير إلى مجموعة القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النص الديني، انظر عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج١، ص٨٨، وانظر أحمد إدريس الطعان، **القرآن الكريم والتأويلية العلمانية (النص واللعب الحر)**، ورقة قدمت لمؤتمر التطورات الحديثة في الدراسات القرآنية، بيروت، ١١-١٢/٤/٢٠٠٦م.

(١٦) انظر عامر عبد زيد، **منهج التأويل المعاصر عند شلاير ماخر**، على الموقع الآتي: www.iraqalkalemah.com.writers.php.

(١٧) انظر عامر عبد زيد، **التأويل والممارسة عند شلاير ماخر**، ص٥.

(١٨) أحمد أدريس الطعان، **القرآن الكريم والتأويلية العلمانية**، ص٧ وما بعدها.

(١٩) للمزيد انظر عبدالرحيم بودلال، **الاتجاه الهرمنيوطيقي وأثره في الدراسات القرآنية**، كلية الآداب وجدة، المغرب، (ورقة قدمت لملتقى فكيك الثالث حول القراءات الجديدة للقرآن الكريم ابريل، عام ٢٠٠٨م)، ص٥.

(٢٠) عمر عبيد حسنة، مقدمة كتاب الأمة: ضوابط في فهم النص، عبدالكريم حامدي، ع١٠٨، س٢٥، ١٥٢٤هـ.

(٢١) هي عبارة عن: أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، ابن جني (ت ٣٩٢هـ)، **الخصائص**، ج١، ص٣٨٣، وانظر مجموعة من المؤلفين: **المعجم الوسيط**، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ج٢، ص٥٧٩. وتجدر الإشارة إلى أن: العلماء في تعريف اللغة ومفهومها، وليس هناك اتفاق شامل على مفهوم محدد للغة ويرجع سبب كثرة التعريفات وتعددها إلى ارتباط اللغة بكثير من العلوم، للمزيد انظر: ابن منظور (ت ٧١١هـ)، **لسان العرب**: باب لغا، بيروت، دار صادر، ج١٥، ص٢٥٠. والزبيدي(ت١٢٠٥هـ)، **تاج العروس**: فصل اللام، ج١، ص٨٥٨٤.

(٢٢) انظر: عبد القادر محمد الحسين، **معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني**، دمشق، دار الغوثاني، ط١، ٢٠٠٨م، ص١١١.

(٢٣) علي جمعة، اللغة وعاء حضاري، **مجلة المسلم المعاصر**، س٢٠. ع٨٠، ١٤٠٤هـ ، ص٥. وانظر: علي ابن عبد الكافي السبكي (ت ٧٧١هـ) **الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي**، بيروت- دار الكتب العلمية، ج١، ص٢٦٤.

(٢٤) السباق يطلق على ما يسبق الآية، أما اللحاق فهو ما كان يتلو الآية المقصودة، وبهذا يكون السياق شاملا لما سبق النص وما تبعه. ولعل أول من أطلق هذا الاستعمال هو الإمام البقاعي في نظم الدرر، واستعمله الألوسي كثيرا انظر: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (٨٨٥هـ)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، بيروت، دار الكتب العلمية، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، ج٤، ص٢٩٦، وج٥، ص٢٤٧، وغيره من المواضع، وشهاب الدين أبو الفضل محمود الألوسي (١٢٧١هـ)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج١، ص٣٣٦، وج٦، ص١٥٣، وغيرها.

(٢٥) حمد بن محمد بن إبراهيم البستي الخطابي، أبو سليمان، (ت ٣٨٨هـ)، فقيه محدث، ذو مكانة رفيعة في العلم، شهد له معاصروه وأثنى عليه بعض الشعراء له

مؤلفات كثيرة، منها، معالم السنن، بيان إعجاز القرآن، غريب الحديث، إصلاح خطأ المحدثين، وغيرها، انظر ترجمته في مقدمة المحقق لكتاب: **ثلاث رسائل في الإعجاز (البيان في إعجاز القرآن)**، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، القاهرة، دار المعارف، ط٤، د. ت.

(٢٦) الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم (ت ٣٨٨هـ): **ثلاث رسائل في الإعجاز (البيان في إعجاز القرآن)**، ص٢٣.

(٢٧) أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمد التنجي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٩٥م، ص١، ص٥٤.

(٢٨) فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي (ت ٦٠٦هـ)، **مفاتيح الغيب الشهير بالتفسير الكبير**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ج٧، ص١٤٨.

(٢٩) انظر مثلا بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي(ت ٧٩٤هـ)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط١، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م، ج٢، ص١٥٢، ١٧٣ فصل فيما يحتاج إليه المفسر، وما على المفسر البداء به. وانظر عبد الرحمن ابن الكمال جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، **الإتقان في علوم القرآن**، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٦هـ، حيث تحدث في غير موضع، منها تحت عنوان: معرفة معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر، ومنها: في قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها، ومنها: في شروط المفسر وآدابه، انظر ج٢، ص٤٦٧ النوع الثامن والسبعون.

(٣٠) مصطلح المحكم والمتشابه من المصطلحات التي تناولها المتحدثون في علوم القرآن، فالمحكم والمتشابه أحد أنواع علوم القرآن، وقد عد السيوطي ما يقارب ثمانية تعريفات لكل منهما، لكن بالرجوع إلى التعريفات نجد بينها اشتراكا، فالمحكم ما وضح معناه ولم يتنازع فيه، والمتشابه ما أشكل معناه ولم يتضح، وهو ما اخترناه في الدراسة، وقد نص عليه بقوله: "المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجها واحدا والمتشابه ما احتمل أوجها" وقوله: "وقيل المحكم ما استقل بنفسه والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره، انظر السيوطي: **الإتقان**، ج٢، ص٦.

(٣١) هو أكاديمي مصري، متخصص في فقه اللغة العربية Arabic language. نشأ في أسرة ريفية بسيطة، ولد في إحدى قرى طنطا في ١٠ يوليو ١٩٤٣، تقلد عدة مناصب، وتركزت كتاباته حول القرآن، لكن كثيرا ما كانت آراؤه محل نقاش ورد عند العلماء، وله من الكتب: الاتجاه العقلي في التفسير (دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة) وكانت رسالته للماجستير وفلسفة التأويل (دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي) وكانت رسالته للدكتوراة، في كلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغة العربية ومفهوم النص دراسة في علوم القرآن وإشكاليات القراءة واليات التأويل (مجموعة دراساته المنشورة في مطبوعات متفرقة ونقد الخطاب الديني. للمزيد انظر: **الموسوعة الحرة ويكيبيديا** على الموقع الآتي: http://ar.wikipedia.org.

(٣٢) محمد أركون باحث ومؤرخ ومفكر جزائري، ولد عام ١٩٢٨في بلدة (تاوريرت) بمنطقة القبائل الكبرى الأمازيغية بالجزائر، وانتقل مع عائلته إلى بلدة عين الأربعاء (ولاية عين تموشنت) حيث درس دراسته الابتدائية بها. وأكمل دراسته الثانوية في وهران، ابتدأ دراسته الجامعية بكلية الفلسفة في الجزائر ثم أتم دراسته في السوربون في باريس. **الموسوعة الحرة (ويكيبيديا)**.

(٣٣) جوهر الفرق بين المصطلحين أن ما يقتضيه حال المخاطب أحيانا يختلف عما يقتضيه المقام الذي ينبغي أن يكون فيه، وهذا هو الذي يجعل المتكلم يختار من الكلام ما يناسب المقام الذي فيه الشخص في لحظة الخطاب، فمقام الحزن غير مقام الفرح، ومقام الأمي غير مقام المثقف، ومعلوم أن تعريف البلاغة قائم على هذا الأمر، حيث قيل في تعريفها، مطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطبين. انظر: سميرة عدلي محمد رزق، **مقتضى الحال مفهومه وزواياه في ضوء أسلوب القرآن الكريم**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

جامعة الملك عبد العزيز، ص٥.

(٣٤) الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله.

(٣٥) انظر: بديع الزمان النورسي (ت ١٣٧٩هـ): **كليات رسائل النور**، الكلمات ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص٤٧١.

(٣٦) من المصطلحات النقدية في الأدب الحديث، وقد تعرض لتعريفه مؤلفا كتاب (دليل الناقد الأدبي): وذكرا أنه من وضع امبيرتو إيكو والنص المفتوح هو النص الذي سعى مؤلفه إلى تمثل دور القارئ أثناء كتابته للنص.

(٣٧) محمد عبد الله دراز، **النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن الكريم)**، الكويت، دار القلم، ١٩٨٤م، ص١١٨.

(٣٨) منهم الماوردي ذكر المعاني المتقدمة جميعها بعد تساؤل وضعه، أنقله هنا لتمام الفائدة: "فإن قيل: كيف يرزق من يشاء بغير حساب وقد قال تعالى: **﴿عَطَاءً حِسَاباً﴾**[٣٦: النبأ] ففي هذا ستة أجوبة:

أحدها: أن النقصان بغير حساب، والجزاء بالحساب.

والثاني: بغير حساب لسعة ملكه الذي لا يفنى بالعطاء، لا يقدر بالحساب.

والثالث: إن كفايتهم بغير حساب ولا تضييق.

والرابع: دائم لا يتناهى فيصير محسوباً، وهذا قول الحسن.

والخامس: أن الرزق في الدنيا بغير حساب، لأنه يعم به المؤمن والكافر فلا يرزق المؤمن على قدر إيمانه ولا الكافر على قدر كفره.

والسادس: أنه يرزق المؤمنين في الآخرة وأنه لا يحاسبهم عليه ولا يَمُنُّ عليهم به. أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠هـ)، **النكت والعيون**، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م، ج١، ص١٥٠. وذكر قريبا منه ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١، ص٢٣٤. وأشار إلى المعاني المذكورة أكثر المفسرين، منهم أبو السعود والنسفي والبيضاوي وأبو حيان والآلوسي.

(٣٩) توجد ورقة بحث قدمت لمؤتمر الإعجاز الذي عقد في جامعة الزرقاء الأهلية للدكتور مهدي أسعد عرار، بعنوان: **انفتـــاح الدلالة في النص القـــرآني**، ومن ثم نشر البحث في مجلة إسلامية المعرفة.

(٤٠) منها: **المكتفى في الوقف والابتداء في كتاب الله** ﷻ، تأليف أبو عمرو الداني (٤٤٤هـ)؛ تحقيق يوسف المرعشلي، ط٢، بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٧، ص٧٠٤. ومنها: **القطع والإئتناف أو الوقف والابتداء**، المزيدي أحمد بن محمد النحاس، تحقيق: أحمد فريد، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م، ص٦٠٠، ومنها: **الوقف والابتداء في كتاب الله** ﷻ، سعدان، أبي جعفر محمد، ٢٠٠٢م، مركز جمعه الماجد للثقافة والتراث"، ص٢٦٠، دبي. ومنها: **كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله** ﷻ، ابن الأنبارى، أبو بكر محمد بن القاسم، رمضان، محيي الدين، ١٩٧١م، مجمع اللغة العربية، ص٥٦٠، دمشق، ومنها: **منار الهدى في بيان الوقف والابتداء** ومعه المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء، الأشموني، أحمد بن محمد بن عبد الكريم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٢م، ص٨٨٨.

(٤١) منهم السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد ابن إبراهيم (٣٧٥هـ)، **بحر العلوم**، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م، حيث قال: "الوقف على تمشي إذا كان قولها على الحياء، فأما إذا كان مشيها على الحياء، فالوقف على استحياء. والقول بالحياء أشبه من المشي بالحياء، فكيف ما يقف يجوز بالمعنى"، ج٣، ص٣١٤. ونقل الفخر الرازي عن عبد العزيز بن أبي حازم على إجلال له ومنهم من يقف على قوله تَمْشِي ثم يبتدئ فيقول عَلَى اسْتِحْيَاء قالت إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ يعني أنها على الاستحياء قالت هذا القول لأن الكريم إذا دعا غيره إلى الضيافة يستحيي لا سيما المرأة وفي ذلك دلالة على أن شعيباً لم يكن له معين سواهما" انظر الرازي: **مفاتيح الغيب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ج٢٤، ص٢٠٦.

(٤٢) هو اجتماع نغمات ضمن مجموعة من الكلمات على صعيد الجملة، ، أحمد محمد قدور: **مبادئ اللسانيات**، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط١، ١٩٩٦م، ص١٢٠.

(٤٣) عبد الرءوف أبو السعد، **الأداء النفسي واللغة العربية**، القاهرة، دار النمر للطباعة، د.ط، ١٩٨٥م، ص٤٣١-٤٣٢.

(٤٤) انظر مثلا: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تأليف أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي؛ تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م، ج٧، ص٦٦. وناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي (٦٨٥هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ط١، بيروت، لبنان: دار صادر، ١٩٩٠م، ج١، ص٥٨٥. وذكره أكثر المفسرين، منهم الزمخشري في الكشاف ، والرازي في مفاتيح الغيب والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن، وأبو حيان في البحر المحيط.

(٤٥) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح أبو عبد الله (ت٦٧١هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٠م، ج٢٠، ص٣٣.

(٤٦) والمعنى الظاهر من الآية أن لا يقدموا حبهم لأنفسهم على حب رسول الله ﷺ، وقد ذكر قريبا من هذا البروسوي، حيث قال: "فالمعنى اللغوي في الآية ولا يجعلوا أنفسهم راغبة ومعرضة عن نفسه عليه السلام وحاصل المعنى لا يصرفوا أنفسهم عن نفسه الكريمة أي عما ألقى فيه نفسه من شدائد الغزو وأهوالها ولا يصونها عما لا يصون عنه نفسه بل يكابدوا معه ما يكابده فانه لا ينبغي أن يختاروا لأنفسهم الخفض والدعة ورغد العيش ورسول الله في الحر والمشقة". إسماعيل حقي البروسوي: **روح البيان**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م، ج٥، ص١٩٤.

(٤٧) انظر فاضل صالح السامرائي، **التعبير القرآني**، عمان- دار عمار، ٢٠٠٧م، ص١١٩.

(٤٨) وفي الإلّ سبعة تأويلات. أحدها: أنه العهد، وهو قول ابن زيد.والثاني: أنه اسم الله تعالى، قاله مجاهد، ويكون معناه لا يرقبون الله فيكم.والثالث: أنه الحلف، وهو قول قتادة. والرابع: أن الإل اليمين، والذمة العهد، قاله أبو عبيدة، ومنه قول ابن مقبل: أفسد الناس خلوف خلفوا... قطعوا الإلَّ وأعراق الرَّحِم، والخامس: أنه الجوار، قاله الحسن. والسادس: أنه القرابة، قاله ابن عباس والسدي، ومنه قول حسان: وأُقسم إن إلَّك من قريش... كإلِ السَّقْبِ من رَأل النعام، والسابع: أن الإل العهد والعقد والميثاق واليمين، وأن الذمة في هذا الموضع التذمم ممن لا عهد له، قاله بعض البصريين. وفي قوله: ﴿وَلاَ ذِمَّةً﴾ ذكر ثلاثة أوجه: أحدها: الجوار، قاله ابن بحر. الثاني: أنه التذمم ممن لا عهد له، قاله بعض البصريين. والثالث: أنه العهد وهو قول أبي عبيدة. الماوردي: النكت والعيون، ج٢، ص٩١. وللمزيد انظر: مهدي أسعد عرار، **انفتاح الدلالة في النص القرآني**، وانظر ما قيل في معنى "الإل": أبو عبيدة (ت ٢٠٨هـ) **مجاز القرآن**، القاهرة: مكتبة الخانجي، ج١، ص٢٥٣، ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله أبو مسلم تفسير غريب القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م، ص١٨٣. أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج٢، ص٢٣٧.

(٤٩) انظر تفصيلها لابن هشام، جمال الدين أبو محمد عبد الله أنصاري (٧٦١)، **مغني اللبيب**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.م، ١٩٨٠م، ص٦٨٤.

(٥٠) الزمخشري، **الكشاف**، ج٢، ص١٠٧.

(٥١) للمزيد حول أفق المفسر وأفق النص انظر: آية اللّه الشيخ محمد علي التسخيري الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، نظرية القراءات والاجتهاد الإسلامي على الموقع الآتي: http://www.hawzah.net/Per/Magazine/AH/010/AH01010.ASP

(٥٢) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر (ت ١٣٩٣م)، **التحرير والتنوير**، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، ٢٠٠٠م، المقدمة التاسعة، ج١، ص٩٧.

(٥٣) قال الفيروز أبادي: وقد ورد القدر وما يتصرَّف منه لمعان مختلفة: الأَول: بمعنى الشرف والعظمة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وقيل معناه: ليلة قَيَّضتها لأُمور مخصوصة.. الثَّاني: بمعنى ضيق المكان والمعيشة: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقَدِرُ﴾، ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي ضُيِّق، ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي لن

نضيِّق عليه. الثالث: بمعنى التزيين وتحسين الصّورة: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ صوَّرنا فنعم المصوِّرون: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾، أي خلق فصوّر. الرابع: بمعنى الجَعْل والصُّنع: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾، أي جعل له منازل ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾، ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، الخامس: بمعنى العلم والحكمة: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي يعلم. السَّادس: بمعنى القدرة والقوَّة: {أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} أي يقْوى، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾. ولها نظائر. انظر الفيروز أبادي، الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ)، مجد الدين محمد بن يعقوب، النجار، محمد علي: **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز،** القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٨٦م، ج٤، ص٣٢.

(٥٤) انظر: محمد حسين الذهبي: **التفسير والمفسرون بحث تفصيلي عن نشأة التفسير وتطوره،** القاهرة، دار الكتب العربية، ط٢، ١٩٧٦م، ج١، ص٢٦٣.

(٥٥) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(ت ٣١٠هـ)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن،** تحقيق: أحمد ومحمود شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠م، ج٢١، ص٥٨٥.

(٥٦) حيث يقول: "فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء كانا عقليين أو سمعيين أو أحدهما عقليا والآخر سمعيا وهذا متفق عليه بين العقلاء لأن الدليل القطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة، وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان وأحدهما يناقض مدلول الآخر للزم الجمع بين النقيضين وهو محال بل كل ما يعتقد تعارضه من الدلائل التي يعتقد أنها قطعية فلا بد من أن يكون الدليلان أو أحدهما غير قطعي أو أن لا يكون مدلولاهما متناقضين فأَما مع تناقض المدلولين المعلومين فيمتنع تعارض الدليلين، وأن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعيا دون الآخر فإنه يجب تقديمه باتفاق العقلاء سواء كان هو السمعي أو العقلي فإن الظن لا يرفع اليقين، وأما إن كانا جميعا ظنيين فإنه يصار إلى طلب ترجيح أحدهما فأيهما ترجح كان هو المقدم سواء كان سمعيا أو عقليا" ابن تيمية، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم (ت٧٢٨هـ)، **درء تعارض العقل والنقل،** بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، ص٦٠.

(٥٧) للمزيد انظر سعيد فودة، **أقسام الحكم العقلي وبيان معناها والعلاقة بين العقل وبين النقل،** جامعة روتردام الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية، ص١٧.

(٥٨) قاله النيسابوري: القمي، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان،** ج٢، ص١٥٥.